مرحلة جديدة فى الدين

بنو إسرائيل

ومثل بنى إسرائيل — أو العبرانيين — مثل جميع الأمم الغابرة فى تطور العقيدة

فقد دانوا زمناً بعبادة الأسلاف كما دانوا بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة وطواطم الحجارة والأشجار والحيوان .

وبقيت فيهم عبادة الأوثان بعد دعوة إبراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء. فعبدوا « عجل الذهب » فى سينا ، بعد خروجهم من الديار المصرية . وفى الإصحاح الثامن عشر من كتاب الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهودا « . . .أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها . . . »

وجاء الإصحاح التاسع عشر من كتاب صموئيل الأول أن إحدى زوجات داود عليه السلام — ميكال — « أخذت الترافيم ووضعته فى الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب » .

والمعروف أن الترافيم أو الطرافين بصيغة الجمع هى تماثيل على صورة البشر تقام فى البيوت وتحمل فى السفر ، ويرمز بها إلى الله .

وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام والأوثان . وقيل إنه، عليه السلام، أول من سمى الإله « يهوا » وهو اسم لايعرف اشتقاقه على التحقيق . فيصح أنه من مادة الحياة ويصح أنه نداء لضمير الغائب ، لأن بنى إسرائيل كانوا يتقون ذكره توقيراً له ويكتفون بالإشارة إليه ، ويصح غير ذلك من الفروض.

وعبدوا الإله باسم «إيل» أى القوى فى اللغة الآرامية . ولكن الأسماء العبرية تدل على أنهم قد لبثوا زماناً يصفون الإيل بالصفات البشرية ويقبلون نسبة

القرابة الإنسانية إليه . كما فى اسم عمائيل من « العمومة » أو « إيل أب » من الأبوة وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .

وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال . وأنه دفن موسى حينما مات فى موآب .

وقد خلت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الجب ، أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأجسام بعد الموت ، ولا نجاة منها لميت . . . « وإن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد . . . »

وأول إشارة ليوم كيوم البعث وردت فى الإصحاح الرابع والعشرين من كتاب أشعيا الذى عاش نحو القرن الثالث قبل الميلاد ، وفيه نبوءة عن يوم « يطالب فيه الرب جند العلاء فى العلاء ويجمعون جمعاً كأسارى فى سجن . . . ويخجل القمر وتخزى الشمس لأن رب الجنود قد ملك فى جبل صهيون وفى أورشليم » ، وفى الإصحاح السابع والعشرين بعده أن الرب يعاقب بسيفه القاسى الشديد فى ذلك اليوم « لوياثان الحية العارية ، لوياثان الحية المتحوية ، ويقتل التنين الذى فى البحر » . ومن أعمال ذلك اليوم كما جاء فى الإصحاح الخامس والعشرين « أن رب الجنود يصنع لجميع الشعوب وليمة سمائن : وليمة خمر على دردى سمائن ممخة : دردى مصفى » .

وجاءت إشارة أخرى إلى يوم البعث والدينونة فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب دانيال ، وهى أصرح من الإشارات السابقة حيث يقول فيها النبى : « إن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدى . . » ويلاحظ أن كتاب دانيال لا يحسب من كتب العهد القديم فى جميع النسخ .

ويرجع تاريخ هذه النبوءة إلى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حوالى سنة مائة وخمس وستين ، وإنما كان الثواب والعقاب قبل ذلك نصراً يؤتاه الإسرائيليون على

الأعداء أو بلاء يصابون به على أيدى الأقوياء ، جزاء لهم على خيانة « يهوا » وعبادة غيره من أرباب الشعوب .

وكان معنى الكفر فى الإسرائيلية كمعنى الخيانة الوطنية فى هذه الأيام ، فكانت للشعوب آلهة يؤمن الإسرائيليون بوجودها ، ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتماء إلى دولة أجنبية . فربّ الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الغرباء .

وظلوا على ذلك إلى أن فهموا « الوحدانية » التى تتعالى على الشبيه والنظير فى أيام أشعيا الثانى القائل بلسان الرب : « بمن تشبهوننى وتسوونى وتمثلونى لنتشابه؟» ... وهو الذى شدد النكير عليهم قائلا : « إن الله هو الأول منذ القدم ، وهو المخبر منذ البدء بالأخير » . ونعى عليهم أن يعبدوا صنماً « يرفعونه على الكتف ويحملونه ويضعونه فى مكانه ليقف فى موضع ولا يبرحه ، وينادیه الداعى فلا يجيب » .

وكان سقوط الدول الكبيرة فى عهد أشعيا الثانى مؤذناً باقتراب يوم إسرائيل الموعود . فقد تداعت بابل ومصر وآذنت فارس بالتداعى والانقسام ، فتجدد رجاء إسرائيل فى ملك العالم ، وفسروا سقوط الدول الكبرى بغلبة « يهوا » عليها وعقوبته لها على ما أسلفت من الإساءة إلى شعبه ، ولاح لهم — لأول مرة — أن ربهم يبسط ظله على الأرض بما رحبت ، وأن يوم الخلاص الموعود جد قريب.

والغالب فى وصفهم للإله أنه غيور شديد البطش متعطش إلى الدماء ، سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه . ولكن موسى عليه السلام وصفه بالرحمة وفريقاً من أنبيائهم وصفوه بالحب واللطف وعلموهم أنه يحب عباده ويطلب من عباده أن يحبوه ، أو كما قال هوشع : « إنه يريد رحمة لا ذبيحة » وأن خلائق العدل والحق والإحسان والمراحم هى خلائق الأبرار .

* * *

وقد شغلت العقائد الإسرائيلية حيزاً كبيراً من مقارنات الأديان ، لأنها : « أولا » نقطة التحول بين العبادات القديمة والعبادات فى الديانة الكتابية. ولأنها « ثانياً » صحبت التطور فى فكرة المسيح المنتظر فى مبدئها ، فكانت

تمهيداً متوالياً للدعوة المسيحية ، وهى أوسع الدعوات الكتابية انتشاراً بين الأمم التى عنيت بالدراسات العلمية الحديثة فى مقارنات الأديان .

ولأنها « ثالثاً » موضوع مقابلة مستفيضة بينها وبين عقائد البابليين والمصريين والفرس والهنود الأقدمين ، ولها صلة قريبة بعقائد اليونان قبل عصر الفلسفة وبعدها إلى عصر السيد المسيح .

فكانت العقائد الإسرائيلية نقطة التحول . . . لأنها بدأت بتصور الإله على صورة إنسان يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويغار من منافسيه ويخص قبيلته وحدها بالبركة والتشريع ، وقرنت هذه الصورة تارة بعبادة الأصنام وتارة بعبادة الموتى أو ظواهر الطبيعة وتماثيل الطواطم من الحيوان والنبات ، ثم تطورت صفات الله فى اعتقاد أبنائها من أعلى إلى أعلى حتى عبدوا الإله الأحد المنزه عن التجسد وعن خلائق البشر القادر على كل شىء والعليم بما كان ويكون ، والرحيم الذى يحب الرحماء والودعاء والعاملين بالبر والعدل والإحسان .

تبتت فكرة «المسيح المنتظر» فى عقائد بنى إسرائيل بعد زوال ملكهم وانتقالهم إلى الأسر فى بابل قبل الميلاد بنيف وخمسة قرون . ومعنى كلمة المسيح «الممسوح بزيت البركة » لأنهم كانوا يمسحون به الملوك والأنبياء والكهان والبطاريق ، فكان شاؤل الملك يسمى بمسيح الرب كما جاء على لسان داود فى كتاب صموئيل الأول : « حاشانى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب » . . . وكانوا يمسحون الأنبياء بالزيت المبارك كما جاء فى كتاب الملوك الأول « وامسح أليشع ابن شافاطا . . . نبيًّا عوضاً عنك » ويمسحون به الكهان كما جاء فى كتاب الخروج : « هذا ما نصنعه لهم لتقديسهم . . . نأخذ دهن المسحة ونسكبه على رأسه ونمسحه » ويمسحون به البطارقة ويسمونهم بالمسحاء كما جاء فى المزمور الخامس بعد المائة : « لاتمسوا مسحائى ولا تسيئوا إلى أنبيائى . . » بل كانوا يمسحون به كل ما يريدون تقديسه كما جاء فى كتاب اللاويين : « ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه . ونضح منه على المذبح سبع مرات ، ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها

وصب من دهن المسحة على رأس هرون ومسحه لتقديسه » .

وكانوا فى مبدأ الأمر ينتظرونه ملكاً فاتحاً مظفراً من نسل داود ، ويسمونه ابناً لله كما قال ناتان لداود عليه السلام فى كتاب صموئيل الثانى : « هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد . . . أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً » .

ولكنهم أطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم كما فعل كورش بالبابليين ؛ فجاء فى كتاب أشعيا : « هكذا يقول الرب لمسيحه : لكورش الذى أسكت بيمينه لأدوس به أمماً . . »

وخطر حيناً للنبيين زكريا وحجاى فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد أن زر بابل — والى يهودا — هو المسيح المنتظر . لأنه أعاد بناء البيت فى السنة الثانية للملك داريوس .

وتهذبت هذه العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العادلين بعد طول انتظاره من زمرة الغزاة الفاتحين . فقال زكريا فى رؤياه : « ابتهجى جداً يا ابنة صهيون ، اهتفى يا بنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتى إليك : هو عادل ومنصور وديع . راكب على حمار : على جحش بن أتان »

وقد طالت المقارنات بين بعض الصلوات الإسرائيلية وبعض الصلوات المصرية . . . ولكن علماء الأديان عقدوا المقارنة الكبرى بين مأثورات بابل وفارس ومأثورات إسرائيل .

فقصة الخليقة فى العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة فى ألواح بابل . وعقيدة « المخلص » المنتظر موجودة فى الديانة الفارسية وموجودة فى الديانة الإسرائيلية . . وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان تمرد على قسمة الموت وطمح فى خلود كخلود الأرباب فبحث عن ثمرة البقاء فى السماء وخدعه إله ماكر عن بغيته فناوله بديلا منها ثمرة تشبهها فى ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء ، وهى ثمرة الحب التى تعطى الفناء فى صورة البقاء، وهذه فى جملتها لا فى تفصيلها قريبة من المأثورات الإسرائيلية فى هذا الموضوع .

وعند البابليين فى قصة مفصلة عن الطوفان ، ولكنها فى الواقع قصة متواترة شاملة توجد بقاياها فى المأثورات القديمة من أمريكا الجنوبية إلى الهند . فيروى أهل إقليم كنديماركا Cundimarca بأمريكا الجنوبية أن امرأة الرجل المقدس بوشيكا أولعت بالسحر وأصغت إلى وسواس الشيطان فأخرجت نهر فونزا Funzha من مجراه وأغرقت الإقليم كله بإنسانه وحيوانه ونباته ، فلم يعتصم منه إلا من تبع بوشيكا إلى الجبال . ثم عاد بوشيكا فجمع قومه وعلمهم عبادة الشمس وأسلم الروح .

وقصة الطوفان عند المكسيكيين المعروفين بالشيشميين Chichimygues أن العصر الأول من عصور الخليقة — هو المسمى عندهم بعصر أتوناتيو — أى عصر شمس الماء — قد انتهى بطوفان جارف نجا منه رجل واحد اسمه تزبى وامرأته ششكتزال ، وكانت نجاتهما على زورق مصنوع من الخشب الصفصاف ، ويروى أهل بيرو قصة شبيهة بقصة المكسيكيين .

وأهل فريجية بآسيا الصغرى يروون قصة الطوفان ويجعلونها فى زمن ملك من ملوكهم يسمى ناناشس Nannachus ويسمون البلد الذى لجأ إليه الهاربون من الطوفان باسم « كيبوتوس » . ومعناها السفينة فى لغة الفرنجيين .

وقد ترجم ماكس موللر قصة السنسكريتية خلاصتها أن ناسكاً دعا بماء فى الصباح ليغتسل فوثبت له من الماء سمكة وقالت له : احفظنى فإننى سأحفظك . فسألها : ومم تحفظيننى ؟ قالت من الطوفان الذى سيغرق كل هذه الخلائق . . وسيأتى الطوفان يوم أكبر ، فاعلم يومئذ أن الساعة قد أزفت وابن لك سفينة واتخذنى دليلا للنجاة » .

ويعود الإغريق بقصة الطوفان إلى عهد أوجيج Ogyge ملك أتيكا الأول . ولعل اسمه مأخوذ من كلمة أوجا Augha السنسكريتية بمعنى الطوفان ، وعندهم أن الماء علا حتى بلغ السماء فلاذ الملك وخاصة أهله بسفينة صنعها فنجا عليها من الموت . وفى رواية إغريقية أخرى أن زيوس غضب على البشر فأغرقهم وعلم برجيوس بما انتواه فنصح لابنه دوكاليون أن يصنع السفينة لينجو عليها ، فصنعها

ونجا عليها مع زوجته بيرها إلى جبل البرناس .

ويقول اللتوانيون فى قصتهم عن الطوفان إن الإله پرمزيماس غضب على الدنيا فأرسل عليها ماردين هما « واندو » و « ويجاس » أى الماء والريح . فغرق كل من فى الأرض إلا من ألهمه الإله أن يعتصم بالجبل .

وقصة البابليين كما نقلها المؤرخ الإغريقى بيروسس Berosus قديماً تزيد على قصة الغرق والنجاة بقصة ألواح التشريع ، وخلاصتها أن إكزيسترس Xisuthrus الذى نجا بالفلك أحس بقرب الطوفان فدفن فى الأرض ألواح الشريعة ، وتفقدها أبناؤه بعد هبوط الماء فاستخرجوها من مكانها . . فهى أساس النظام القديم فى دولة البابليين .

وتستند قصة الطوفان عند البابليين إلى تقدير من تقديرات علم الفلك أو على الأصح علم التنجيم ، يزعمون فيه أن العالم تتعاوره فى الآباد الطوال أدوار الطوفان وأدوار الحريق ، ويختلفون فى تقدير هذه الأدوار بالسنين الكونية ولكنهم يحسبون السنة الشمسية كأنها ثانية بالنسبة إلى اليوم العالمى أو كأنها ثانيتان بحسابنا لأنهم كانوا يقسمون النهار والليل إلى اثنتى عشرة ساعة لا إلى أربع وعشرين ، ويحسبون السنة العالمية كأنها يوم فى السنة الكونية التى تقع أدوار الفناء بحسابها ، وقد اختلفوا كما أسلفنا فى تقدير مدة هذه الأدوار ، ولكنهم يقولون إن الغرق الكونى يحصل كلما اجتمعت الأفلاك السماوية فى برج الجدى ، وإن الحريق الكونى يحصل كلما اجتمعت فى برج السرطان . وهنا يقع الخلط بين حساب الآباد وحساب الفصول الأرضية كما لاحظ العلامة جومبيرز مؤرخ الفلسفة اليونانية الكبير ، فإنهم وهموا أن الحريق الكونى من حرارة الصيف ، وأن الغرق الكونى من برد الشتاء كما يقعان فى تقلبات الفصول .

وعموم قصة الطوفان يثبت وقوع الطوفان وإن تقادم به العهد فتعددت به الروايات .

وقد طالت المقارنات — كما أسلفنا — بين مصادر العقيدة عند الإسرائيليين ومصادرها عند شعوب بابل ومصر وفارس والهند على التخصيص .

فبعض علماء المقارنات يرى أن البابليين نقلوا قصة الخليقة وقصة الطوفان من قوم إبراهيم عليه السلام لأنه نشأ فيهم قبل الميلاد بألف سنة على التقريب .

وبعضهم يرى على نقيض ذلك أن هذا النقل جائز فى المأثورات التى انقطعت أسنادها وأمكن أن تبدأ عند البابليين والإسرائليين على السواء ، ولكنه غير جائز فى المأثورات التى تسلمت مما قبلها فى عقائد بابل وفارس .

ونحن هنا لا تعنينا مقارنات العقائد إلا من جانب واحد ، وهو جانب التطور البشرى فى إدراك صفات الله .

ومتى قصرنا النظر على هذا الجانب ، فالثابت من تاريخ الديانة الإسرائيلية أنها انقلبت بعد عصر إبراهيم عليه السلام إلى وثنية كالوثنية البابلية ، وأن التوحيد الذى بشر به إخناتون فى مصر القديمة سابق لشيوع التوحيد فى شعوب إسرائيل ، ولكن العقيدة الإسرائيلية عاشت بعد اختفاء عقيدة إخناتون وبعد عصر موسى عليه السلام . . فكانت هى كما تقدم نقطة التحول فى تطور الاعتقاد بالله بين الأمم التى تؤمن اليوم بالأديان الكتابية .

حسبهم من شرائع الأنبياء وشرائع الرومان فقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وذكرهم بجانب الرحمة والإحسان وقد نسوه ، ولم يذكروا غير جانب الغضب والقصاص .

* * *

وقد أشار السيد المسيح إلى نفسه بتعريفات كثيرة رواها عنه كتاب الأناجيل فكان إذا تكلم عن نفسه قال : « أنا ابن الإنسان » أو « أنا نور العالم » أو « أنا خبز الحياة » أو « أنا الطريق والحق والحياة » أو « أنا القيامة والحياة » أو « أنا الراعى الصالح ، وأنا المعلم والسيد » أو « أنا الكرمة الحقيقية . . . » ولم يذكر نفسه باسم المسيح ولكنه بارك الحوارى بطرس حين سماه به ، وقال له إنه اهتدى إلى حقيقته بنفحة من نفحات الروح .

ولم تكتب هذه الأناجيل فى عصر السيد المسيح بل بعد عصره بجيلين ، ولكن مواضع الاتفاق فيها تدل على رسالة واحدة صدرت من وحى واحد ، ويؤكد لنا وحدة هذه الرسالة أن فكرة الله فيها لا تشبهها فكرة أخرى فى ديانات ذلك العصر الكتابية أو غير الكتابية . فقد كانت هناك ديانات طافحة بالشعائر الخفية والمراسم التقليدية ، وكانت هناك ديانات تفهم العلاقة بين الله والإنسان كأنها ضرب من علاقة الحاكم بالمحكوم أو الصانع بالمصنوع أو العلة بالمعلول ، ولكن الفكرة المسيحية التى قررتها الأقوال المتفقة فى الأناجيل تتميز كل التميز عن مجمل الأفكار الإسرائيلية أو الأفكار الهندية والمجوسية أو أفكار المؤمنين بعقائد الفلسفة أو العقائد السرية . فالعلاقة بين الإنسان وخالقه فى بشارة السيد المسيح هى العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها ، بين المكفول وكافله ، وبين الرعية وراعيها ، ولم تتفق هذه الصفة فى ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت فى الديانة المسيحية ، وهى فى رأينا علامة جوهرية لا تقل فى قوتها عن أسانيد التاريخ التى تبطل شكوك المترددين فى وجود السيد المسيح .

وإنما طرأت الشبهة على أذهان أولئك المترددين من تماثل بعض الشعائر على النحو الذى أجملناه فى نقدنا لكتاب إميل لدفج عن السيد المسيح حيث نقول :

« إن الذى يرددونه أكثر من سواه أن كل شعيرة فى المسيحية قد كانت معروفة فى ديانات كثيرة سبقتها ، حتى تاريخ الميلاد وتاريخ الآلام قبل الصليب . . . فاليوم الخامس والعشرون من شهر ديسمبر الذى يُحتفل فيه بمولد المسيح كان هو يوم الاحتفال بمولد الشمس فى العبادة المثرية . إذ كان الأقدمون يخطئون فى الحساب الفلكى إلى عهد جوليان ، فيعتبرون هذا اليوم مبدأ الانقلاب الشمسى بدلا من اليوم الحادى والعشرين فى الحساب الحديث ، وقد اعترضت الكنيسة الشرقية على اختيار اليوم الخامس والعشرين لهذا السبب وفضلت أن تختار لعيد الميلاد اليوم السادس من شهر يناير الذى « تعمد » فيه السيد المسيح . على أن هذا اليوم أيضاً كان عيد الإله ديونيسيس عند اليونان وبعض سكان آسيا الصغرى ، وكان قبل ذلك عيد أوزيريس عند المصريين ، ولا يزال متخلفاً فى العادات المصرية إلى اليوم . ففى اليوم الحادى عشر من شهر طوبة — وكان يوافق السادس من شهر يناير فى التاريخ القديم — كان المصريون يحتفلون بعيد إلههم القديم ولا يزالون يحتفلون به فى عصرنا هذا باسم عيد الغطاس . وقد اتخذت المسيحية اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس تذكاراً لآلام السيد المسيح قبل الصلب . وهذا هو الموعد نفسه الذى اتخذه الرومان قبل المسيح لتذكار آلام الإله أتيس إله الرعاة المولود من نانا العذراء بغير ملامسة بشرية ، والذى جب نفسه فى هذا الموعد ونزف دمه فى حضور شجرة الصنوبر المقدسة .

« وقد كان اسم العذراء مريم بصيغه المختلفة اسماً مختاراً لأمهات كثير من الآلهة والقديسين مثل أدونيس بن ميرة وهرمز بن مايا وفيروش بن مريانا وموسى ابن مريم وبوذا بن مايا وكرشنا بن مارتالا ، وهكذا بحيث يظن أن هذا الاسم شائع لا يدل على ذات معينة .

« ومما يجرى فى هذا المجرى أن تماثيل إيزيس وهى تحمل ابنها حوريس كانت رمزاً فى الكنائس الأولى للعذراء مريم وابنها المسيح . ولما كانت إيزيس إلهة البحر وكان اسمها عند الرومان كوكب البحر أى ستيلا ماريس Stella Marris فليس يبعد أن يكون لهذا الشبه علاقة بالتشابه فى الأسماء . وقد رويت روايات

كثيرة عن الآلهة والأبطال المولودين من الأمهات العذراوات قبل المسيح . فكان بعض الفرس يعتقدون أن زرادشت ولد من أم عذراء ، وكذلك كل الرومان يعتقدون فى أتيس، والمصريون يعتقدون فى رع ، والصينيون يعتقدون فى فوهى ولاو . وقال فلوطرخس فى رسالته عن إيزيس وأوزيريس إن الحمل يحصل فى هذه الأحوال من الأذن وهو ما يفسر صورة العذراء فى القرون الوسطى . إذ كانوا يرسمونها وشعاع من النور يتجه إلى إحدى أذنيها. وقال ترتوليان إن شعاعاً سماوياً هبط على العذراء فحملت بالسيد المسيح . أما التكفير بالموت فكثير فى قصص الديانات القديمة ، وأقربه إلى مواطن المسيحية عبادة تموز الذى كانوا يحتفلون بموته وبعثه فى أنطاكية ، وسرت عادة البكاء عليه إلى النساء اليهوديات فكن يندبنه على باب الهيكل، وأنبهن على ذلك النبي حزقيال . . . وجاء فى التلمود أن رجلا يسمى يسوع قتل وعلق على شجرة قبل الميلاد بمائة سنة .

« والعشاء الربانى كان معروفاً فى عبادة مترا على الطريقة التى عرف بها فى المسيحية ، بل كان الخبز الذى يتناوله عباد مترا فى ذلك العشاء يصنع على شكل الصليب . . . وقد أسف جوستن مارتر فى سنة ١٤٠ لهذه المشابهة وعدها مكيدة شيطانية لتضليل المؤمنين .

« والمعجزة الأولى للمسيح وهى تحويل الماء خمراً معروفة فى عبادة ديونيسيس إله الخمر وإله الشمس . ومن حيواناته المقدسة الحمل والحمار ، وعلى الحمار كان ركوبه حتى قيل إنه كان له حماران فجعلهما نجمين فى السماء . وبهذا الرمز يرمز البابليون إلى مدار السرطان . . . فالخلط بين المسيح وديونيسيس فى ركوب الأتان وتحويل الماء موضع نظر . ومثله الخلط بينهما فى المذود الذى وضعا فيه عند الولادة كما جاء فى إنجيل لوقا حيث قال : وفى تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة . وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والى سورية فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينته الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة

وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته فى المذود . إذ لم يكن لها موضع فى المنزل . أما الإحصاء فى هذا التاريخ فلم يرد له أى ذكر فى تراجم أوغسطس ولم تجر العادة قط فى دولة الرومان أن يكلف الناس السفر من بلادهم إلى البلاد التى عاش فيها أجدادهم الأسبقون ليكتبوا أسماءهم هناك . فالرواية مستهدفة للملاحظة من عدة جهات .

« ولم يُتفق على المكان الذى ولد فيه المسيح كما لم يتفق على الزمان الذى ولد فيه . فمن قائل إنه ولد فى الناصرة ، ومن قائل إنه ولد فى بيت لحم . والذين يقولون إنه ولد فى بيت لحم يذهبون إلى هذا القول لتأييد النبوءة التى تنبئ بظهور المسيح من نسل داود : وهو بيت لحم لا فى الناصرة . وجاء فى إنجيل متى أن يوسف النجار رأى فى المنام أن هيرود الطاغية سيقتل كل طفل يولد فى بيت لحم لذلك العام . مع أن هيرود مات فى السنة الرابعة قبل الميلاد ، ومع أن يوسفيوس المؤرخ لم يذكر خبر هذه المذبحة فيما أحصاه لهيرود من الآثام . وقد سبقت روايات كهذه عن النمروذ وفرعون مصر وغيرهما من الأمراء الذين أنذرتهم النبوءات بظهور أعدائهم قبل مولدهم . فهى روايات لا تدل على شىء يعتمد على التاريخ ولم تكتب هى ولا كتب غيرها مما ورد فى الأناجيل إلا بعد عهد المسيح بعشرات السنين . أما الذين عاصروه أو قاربوه غير التلاميذ فلم يذكروا عنه شيئاً ولم يدونوا خبراً . . حتى عجب فوتيوس بطريق القسطنطينية حين قرأ فى القرن التاسع تاريخ جستس الطبرى المكتوب بعد المسيح ببضع سنوات فوجده غفلا من ذكره ، وهو مولود حيث ولد المسيح فى الجليل . . ولم يشر بلينى الأكبر بكلمة واحدة إلى الخوارق التى نسبت إليه ، وهو كثير العناية بجمع الخوارق فى تاريخه الطبيعى المؤلف بعد المسيح بثلاثين أو أربعين سنة . وثبت أن النسخ الصحيحة من تاريخ يوسفيوس المنتهى بالسنة الثالثة والتسعين بعد الميلاد خلو من الفقرتين المشار فيهما إلى المسيح على عجل واقتضاب . وأن هاتين الفقرتين مدسوستان على بعض النسخ فى القرون الوسطى ، ويقال مثل ذلك فى كتب أخرى وردت فيها مثل هذه الإشارات المبهمة بصيغة لا تثبت على المضاهاة والتمحيص » .

وقد جمعنا فيما تقدم جميع الملاحظات التى أوردها المتشككون فى وجود السيد المسيح ، وهى جديرة بالتمحيص لأنها وثيقة الصلة بأسانيد المقارنة بين الأديان ، ويتوقف على تقرير قيمتها تقويم الكثرة الغالبة من تلك المقارنات.

وأول ما نرى أن أصحاب هذه الملاحظات قد نسوه وأغفلوه ولم يقدروا قيمته لأن السيد المسيح هو صاحب الدين الذى كان أكثر الأديان نعياً على ظواهر المراسم والشعائر والنصوص . فمن الغريب أن يجعلوا تشابه المراسم والشعائر والنصوص مبطلا لوجود من أنكرها وأقام دعوته الكبرى على إنكارها .

وأغرب من هذا أن يتخذوا تشابه المراسم والأخبار دليلا على تلفيق تاريخ السيد المسيح . . مع أن التواريخ جميعاً حافلة بأسماء الأبطال المحققين الذين نسب إليهم كل عمل من نوع أعمالهم وكل خليقة من نوع خلائقهم . فإذا اشتهروا بالشجاعة رويت عنهم كل أخبار الشجعان ما ثبت منها وما لم يثبت منها إلا لغيرهم ، وإذا اشتهروا بالفكاهة نسبت إليهم فكاهات المعروفين والمجهولين ولا تزال تنسب إليهم على مر السنين ، وهكذا يصنع الرواة بأخبار كل مشهور سواء كانت شهرته بالمحمود أو بالمذموم من الصفات .

فإذا اختلطت الروايات فى أخبار المسيح فليس فى هذا الاختلاط بدع ولا دليل قاطع على الإنكار . وقد قلنا فى تعليقنا على تلك الملاحظات إنه « لو كان اختلاط الرموز والشعائر من موجبات الشك فى ظهور الرسل لوجب أن نشك فى وجود النبى عليه السلام لما فى الإسلام من شعائر الحج التى أحياها على سنن العرب قبله ، ولوجب أن نشك فى وجود على بن أبى طالب لما أحاط به من أساطير بعض المذاهب الغالية . . وفى مقدمتها انتظار الإمام أو المهدى أو المسيح. وهى عقيدة تتشابه فيها تلك المذاهب المسيحية والإسرائيلية ووثنية المجوس » .

ومما فات أصحاب الملاحظات المتقدمة أن آباء الكنائس الأولى لم يحتفلوا بتلك الأعياد وهم يجهلون تواريخها . ولكنهم بدأوا بالاحتفال بها لاعتبارهم أن إكرام السيد المسيح فيها أجدر بالمسيحيين من إكرام الشمس والكواكب وسائر الأرباب الوثنية . . وكانوا يرون أتباع الكنيسة يندفعون إلى محافل الوثنيين فى تلك الأيام

فيصرفونهم عنها بإحياء المحافل التى تقابلها وتمجيد السيد المسيح فيها بديلا من تمجيد الأوثان . وعلى هذه السنة خصصوا يوم الأحد للعبادة لأنه كان يوم الشمس فى ديانة عبادها الأقدمين . واسم هذا اليوم بالإنجليزية Sunday يدل على بقايا ذلك الدين المهجور .

وأقطع من هذا فى استضعاف تلك الملاحظات — أن روح المسيحية فى إدراك فكرة الله — هى روح متناسقة تشف عن جوهر واحد لا يشبهه إدراك فكرة الله فى عبادة من تلك العبادات .

فالإيمان بالله على تلك الصفة فتح جديد لرسالة السيد المسيح لم يسبقه إليها فى اجتماع مقوماتها رسول من الكتابيين ولا غير الكتابيين ، ولم تكن أجزاء مقتبسة من هنا وهناك . بل كانت كلا متجانساً من وحى واحد وطبيعة واحدة ، وإن وجدت هذه الأجزاء متفرقة هنا وهناك قبل ذاك .